

كيف نبعث الأدب

وكيف نرواه

للأستاذ عبد العزيز البشري

تمة

ابن الربنا الصريح؟

لقد تعرف أن الأدب الحق لكل أمة هو الذي يشا كل حضارتها ، ويكافئ ثقافتها ، ويواتمها في جميع أساليبها ، ويترجم في صدق ويسر عن عواطفها ، وينفض ما يحتاج في الصدور من ألوان الشعور والأحاساس . ولقد تعرف أن الأمم كما تختلف في ألوانها وفي ألسنتها وفي أخلاقها وعاداتها وغير أولئك ، فأنها تختلف كذلك في شعورها وفي أذواقها ومنازع عواطفها . ومهما تختلف في أفراد الأمة الواحدة هذه العواطف بالقوة والضعف ، والرقه والجفاء ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف ، فأنها ترجع إلى أصل واحد ، وتندرج تحت جنس واحد ، على تعبير أصحاب المنطق ، وذلك لأنها أثر من آثار الأرض ، والبيئة ، والعادة ، والتاريخ ، وما يتردد عليه النظر من صور الطبيعة ، وغير ذلك . كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظ الأمة منها أثره البعيد أو القريب في هذا الباب

ومهما يكن من شيء فإن لون العواطف الشائع في كل أمة ليس بالشيء الذي يستمر استمارة ، ولا بالذي تتناقله الأمم كما تتناقل العلوم وفنون الصناعات مثلاً . وكيف له بهذا وقد رأيت أن أبلغ عناصره مما لا يدرك بالكسب ولا بالاختيار ، إن هو إلا حكم الطبيعة وما من حكم الطبيعة مناص !

وأحسب أننا ، بعد التسليم بهذا ، في غير حاجة إلى أن نبعث الأدلة على أن ما يترجم عن عواطف قوم ويصور من حسهم الباطن قد لا يؤدي هذا لغيرهم ، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خلق من الناس لقد ينشر على أذواق ممشري آخرين . على أنه قد تشترك العاطفة والذوق كلاهما في معنى من المعاني ، وحيثئذ يصدق البيان

الشام كما تاق ملك مصر على يد قائده جعفر بن فلاح ، ودعاه بنو حمدان في حلب ، فكانت مملكته الشاسعة تمتد من أواسط المغرب الى شمال الشام ؛ ولكن فورة القرامطة كانت تهدد ملكه الجديد في مصر والشام ، وكان القرامطة قد زحفوا على مصر بالفعل في أوائل سنة ٣٦١ ، ونشبت بينهم وبين جيوش المزم بقيادة جوهر مارك هائلة على مقربة من الخندق (بجوار القاهرة) انتهت بهزيمتهم ، ولكنهم ارتدوا عندئذ نحو الشام فافتتحوها من يد ابن فلاح نائب المزم ، ثم زحفوا على مصر مرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المزم على مقربة من بليس ، وهزمتهم هزيمة ساحقة (وأواخر سنة ٣٦٣ هـ) . وفي العام التالي خاضت الجيوش الفاطمية في الشام معارك شديدة ضد أفتكين المتغلب على دمشق وحلفائه البيزنطيين ؛ وفي الوقت نفسه غلبت الدعوة الفاطمية على الحجاز ودعى للخليفة الفاطمي على منابرها

وتوفى المزم في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ (ديسمبر سنة ٩٧٥ م) ، خلفه ولده العزيز بالله (أبو منصور زار) ، ولبت في الخلافة زهاء إحدى وعشرين سنة . وفي أول عهده زحف القرامطة وحليفهم أفتكين على مصر ، فلقيتهم العزيز في فلسطين وهزمتهم بعد حرب شديدة وأسر أفتكين (٣٦٨ هـ) وفي أيامه استردت دمشق ، وافتتحت الجيوش الفاطمية حمص وحماء وحلب وخاضت مع البيزنطيين معارك عديدة كان النصر حليفها فيها ؛ ودعى للعزيز في الموصل واليمن ، واتسع بذلك نطاق الدعوة الفاطمية اتساعاً عظيماً . ثم توفى العزيز في ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ (سبتمبر سنة ٩٩٦ م) في بليس حيث كان يعتمر السير بمسأكره الى الشام^(١) ؛ خلفه يوم وفاته ولده وولى عهده أبو علي منصور ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وكان العزيز قد استدعاه إليه في مرض موته ؛ وفي اليوم التالي سار الحاكم الى القاهرة ومعه جثة أبيه ، فدخلها في موكب نغم مؤسس مآ

للبحث بقية
محمد عبد الله همام
المهامي

النقل ممنوع

(١) هذه هي الرواية الراجحة وبها يقول ابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠) وابن خلكان (الوفيات ج ٢ ص ٢٠١) . وهناك رواية أخرى هي أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه الى الشام (راجع النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٢١)

وعلى هذا فإنه مهما نسرف في مطالعة أدب الغرب والتروى منه ، ومهما نجهد في محاكائه وتقليده ، فإنه لن يكون لنا أدباً في يوم من الأيام ، اللهم إلا أن تنقلب أوضاع الطبيعة ، فإن الأمم لا تطبع على غرار الآداب ، بل إن الآداب هي التي تطبع على غرار الأمم !

لقد نكون في حاجة ولقد تكون هذه الحاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها ، ونقل ما يهيمنا نقله إلينا منها في لسان العرب ، ولكن ليس معنى هذا أن نتخذها آداباً لنا . فذلك ، كما علمت ، عبث لا يفنى ولا يفيد

والآن نلتصق أدبنا باعتبارنا عربياً أو مستمريين نميش في مصر ، مأخوذين بثقافتها القاعية ، موسولين بتاريخها القديم . إننا نلتصق بهذا الأدب الذي يوحى به إلينا تاريخنا العربي من ناحية ، وتاريخنا المصري من الناحية الأخرى . هذا الأدب الذي تلهمنا إياه أخلاقنا وعاداتنا وثقافتنا ، ويسوِّب له نفوسنا العيش في وادي النيل . إننا نلتصق بهذا الأدب الذي يفيض بما يجيش به عواطفنا ، ويصدق في الترجمة عما يمتلج في نفوسنا ، ويصور دخائل حسنا أو كمل نصوير ، ويمبر عنها أدق تمبير . وإن شئنا الكلمة الجامعة قلنا إننا نلتصق بالأدب القوي فلا نصيب أراء إلا قليلاً فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأديين !

اللهم إن فينا أدباء جروا من العربية على عرق ، وأحرزوا صدراً من بديع صيغها ، وفتحت نفوسهم لمتازع بلاغاتها ، واستظهروا الكثير من روائعها فيما نظم متقدمو شعرائها وما أرسل المجاسون من كتابها . على أن أكثر هؤلاء ، والشعراء منهم على وجه خاص ، إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفص ما يحس هو وما يشعر ، وإنما تراه يترجم عما كان يجده السلف الأقدمون من مئات السنين ، لأنه جعل كل همه إلى المحاكاة والتقليد ليخرج شعراً عربياً لاشك فيه ، وهؤلاء يتناقض عديدهم على الزمان حتى أشق فسهم على الزوال

وهناك شباب لم يتلغوا حظاً مذكوراً من العربية ، ولعل من بلغ منهم حظاً منها لم يُعن بها ولم يكثرث لها ، وهؤلاء أقبلوا على أدب الغرب فعملوا بما كونه ويرسمون آثاره ،

فيستجدون أخيلة لم تراء لأحلامهم ، ويسوون صوراً لم تشمل لحواظهم ، ويريقون عواطف لم تترقق في نفوسهم ، ويفصدون أحاسيس لم تجش قط في صدورهم . وتمام يستكروهون هذه الأمشاج من المعاني على نظام ليس فيه من العربية إلا مفردات الألفاظ ، يشد بعضها إلى بعض بمثل قيود الحديد برغم تنافرها وتناكرها بحيث لو أطلقت من أسارها لتطارت إلى الشرق والغرب ما يلوى شيء منها على شيء . فيخرج من هذا ومن هذا كلام لا يستوي للطبع ، ولا يستريح إليه الذوق ، ولا يخف للتلقي به الخيال ، وكيف له بشيء من هذا ولم ينتضح به طبع ، ولا رُف له بحس ، ولا تحركت به عاطفة ، ولا انبث إليه من نفسه خيال ، فهو أدب مصنوع مكذوب على كل حال بل إن هناك شباباً لم يحدقوا شيئاً من لغات الغرب ، ولم يظهروا فيها على شيء من آداب القوم ، ولكن لقد تمازجهم صنعة أولئك فراحوا هم الآخرون يشاكلونها ويحدقون جاهدين حدوها ليضافوا هم كذلك إلى جمهرة (المجددين) ، وما التجديد في شريعة أكثر هؤلاء إلا الانيان بالغريب الشامس في نظمه وفي صورته وأخيلته ومعانيه ! وإذا كان هذا اللون من البيان مما يصح أن ينتسب إلى أي أدب من الآداب ، فإنه مما لا يصلح لنا على أي حال !

وإن مما يضاعف الاساءة ويزيد في الألم أن يُقبِل الناشئون من طلبة المدارس على هذا اللغو فيخذلوا منه نماذج يحدقونها إذا تحمروا للبيان ، ولن يجشمهم التجويد والبراعة فيه جليلاً من جهد ولا مشقة ، لأن قسراً أي معنى على أي لفظ ، وتسوية الخيال في آية سورة ، ليس مما يبني جهد المرء ولا مما يعتره بالمشاق . ومن هنا يشيع أرخص الآداب ، وأنه ينذر بالشيوع في هذه البلاد ! ولو قد ترك في مذهبه هذا لطنى أشد الطغيان ما تنفى في صده جهود الأعلام من الأدباء . . . وحينئذ يكتب على مصر أن تعيش من غير أدب أو تعيش بهذا الأدب المنكر الشانه الذي لا نسب له مدة طويلة من الزمان !

الأدب القومي :

إذن لا مفر لنا من أن نلتصق أدبنا القومي . ولا يكون هذا الأدب إلا عربي الشكل والصورة ، مصري الجوهر والموضوع . وإذن فقد حث علينا أن نبعث الأدب العربي

اللغات الهندية . أفكان يتسرحُ بك الشك في أنه عربي الأصل والنجم ، عربي الحلية والنسب ؟ اللهم إن تسوية المترجم لما ينقل إلى لغته ، وطبعه على ما يواتي أحلام مشرته ، ويسوغ في أذواقهم ، وينزع منازع بلاغتهم ، ليس مما يقدر في كفايته ، بل إنه لما يرفع من قدره ويُفلى من تصرفه . وكيف لا وهذا القرآن الحكيم لقد حدثنا عن عشرات من الأمم ، كانوا ينطقون في الأجمية لغات متفرقة ، ونقل إلينا كثيراً من أحاديثهم ومقالاتهم ومحاوراتهم ومجادلاتهم ، فما أداها إلا في أعلى العربية الخالصة ، بل في العربية البالغة حد الإعجاز ، وهل بمد بلاغة القرآن بلاغة ، وهل وراء بيان الكتاب العزيز بيان ؟ !

وصفوة القول أنه لا يميم اللغة أو يفض من شأنها أن تصيب من بلاغات غيرها على أن تسيفه وتهضمه وتسويه حتى ينتظم في سلكها ، ويتصل بخلقها ، ويوسع في مادتها ، ويضعف زورتها ، لأن يُفسر عليها قسراً ويُستكراه لها استكراهاً ، فيتكسر صورتها ويشوه من خلقها على ما ترى من صنع كثير يعربدون في الأدب العربي باسم (التجديد) في هذه السنين !

كيف نعلم الأدب :

ولا شك في أن ألبنوع الأول الذي يرد النشء ليتهلوا من فنون العربية ويتروا آدابها ويستشيمروا بلاغتها ، وينبعثوا لترسمها إذا هم أقبلوا على البيان ، هو مبادئ التعليم على وجه علم ، فإذا هي جدت في سببها وأخذت من بين يديها من التلاميذ بما ينبغي أن يؤخذوا به من أساليب التعليم والتحرير ، كان لنا في هذا الباب كل ما نريد

وإذا كان الأدب كسائر الفنون إنما يبرع المرء فيه بالاستعداد الفطري مع الكلف به وشدة الإقبال عليه وطول التحرين فيه بأكثر مما يحرز بالتعليم والتشاقين ، فإن مما لا يعتره الريب أن للأستاذ ، وخاصة في ابتداء العهد بالطلب ، أراء بعيدة في تعليم أصول الفن وبيان حدوده ، وإعلام طريقه بين يدي الطالب ، وتهذيب بطول التعهد ، وتوسيع ملكاته بألوان الملاحظة ، وإسلاس الاجادة له بفنون التدريب والتحرير . وامرئى لو قد أخذ الأساتيد تلاميذهم بهذا الأسلوب في تعليم الأدب العربي لأحبوه وكلفوا به وانبعثوا من تلقاء أنفسهم لمراجعتهم في أوقات فراغهم ، وإمتاع

القديم ، وانتل دواوينه ، ونستظهر روائعه ، ونثروى منها بالقدر الذى يفسح في ملكاتنا ، ويقوم السنننا ، ويطبعنا على صحيح البيان . فاذا أرسلنا الأقاليم في موضوع يتصل بالأداب ، بوجه خاص . أطلقنا القول في صيغة عربية لا شك فيها ، على ألا نطلب بها إلا الترجمة عما يختلج في نفوسنا ، ويتصل باحاسنا ، ونصور بها ما نجد مما يلهمه كل ما يحيط بنا ، وما يعترينا في مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال

ولقد قدمت لك أننا قد نكون في حاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها . ونقل ما ينهيا نقله إلينا منها في لسان العرب . وهذا أمر لا شك فيه ولا غناء لنا عنه ، فإن ذلك مما يهذب من ثقافتنا ، ويفسح في ملكاتنا ، ويرهف من حسنا ، ويهديننا الى كثير من الأغراض التى نشتتها آداب الغرب في هذا العصر . والواقع أننا تهدينا من آداب الغرب إلى فنون لم يكن لنا بها عهد من قبل ، أو أنها مما عاجله سلفنا ولكن لم يكن حظهم منه جليلاً . ومن أظهر هذه الفنون القصص بالمعنى القائم ، ومذاهب النقد الحديث !

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبي لا يجدى علينا ، ولا يؤدي الفرض للقسوم بمطالمتها والإصابة منه إلا إذا هذبناه وسوينا من خلقه ولوثنا من صورته حتى يتسق لطباعنا ويوائم مألوف عاداتنا ، ويستقيم لأذواقنا . كما ينبغي أن نجهد الجهد كله في تجليته في نظام من البلاغة العربية بحكم التنضيد ، فلا نحس فيه شيئاً من نبوء ولا نشوز . وبهذا تزيد في ثروة الأدب العربي ، وترفع من شأنه درجات على درجات

وليس هذا الذى نرجوه لأدبنا بدءاً في شريعة الآداب سواء في جديد الزمن أو في قديمه . فقد كان الأدباء وما برحوا إلى اليوم يتمدون الفكرة البديمة ، والمعنى السامى ، والخيال الطريف المنسجم ، يصبونه في لئى أجنبية ، فلا يزالون به يطامنون منه لأذواقهم ، ويروضونه لأساليب لغاهم ، حتى يجلوها فيها من غير عسر ولا استكراه . وإن تصرف المتقدمين من أقطاب البيان العربي فيما شكروا من ألوان المعانى في اللغات الأجنبية لئن أصدق الدليل على صحة هذا الكلام . وهل رأيت إلى ابن القفص لو لم يجثك أنه ترجم كتابه (كليلة ودمنة) عن إحدى

بعد الفينة بالحديث في الموضوعات الانشائية ، عن الحس والعاطفة
في مختلف الأسباب ، واستدركو عليهم ما عسى أن يكون قد
أخطأهم في ذلك من ناصح البيان

على أن هناك عقبة أخرى تحتاج إلى جهد في التذليل ، وهي
أنه في ركود لغة العرب بانقباض حضارتهم ، عُقد ما لا يكاد
يحصره العدد من الاصطلاحات العلمية والفنية ، واستحدثت
أشياء كثيرة جداً في جميع وسائل الحياة ، سواء منها الضروريات
والكفايات . ولا شك في أن إصابة هذه الأشياء في لغاتها إفساد
للعربية واستهلاك لها . كما أنه لا معنى للاتفات عنها إلا الاعراض
عن هذه الحضارة المريضة ، بل الاعراض عن أكثر ما يجده
وما نمالجه في هذه الحياة . وهذه العقبة تقوم الآن على تذليلها
جهود أفضل الأدباء من جهة ، والمجمع الملكي للغة العربية من
جهة أخرى ، بالفوس عماد يدل على ذلك في مجفو العربية سواء
بأصل الوضع أو بالطرق الفنية الأخرى

ولقد يكون من المفيد في هذا المقام أن تنبه حضرات رجال
هذا المجمع أن الاكتفاء بآليات ما يتسوق لهم من المصطلحات
والألفاظ في معجم جامع أو نشرها في كراسات دورية ليس مما
يجدى كثيراً في إصابة الغرض المقسوم ، فقد ثبت ، بحكم التجربة ،
أن أبلغ الوسائل في شيوع الألفاظ والصيغ المستحدثة أو البموثة
من جانب اللغة ، وكثرة دوراتها على الألسن والأقلام ، هي
استعمال كبار الشعراء والكتاب لها ، وترديدها فيما يجاميه الصحف
السائرة لهم من الآثار ، فبذا لوسى إلى هذا أولياء اللغة ، وخاصة
فيما يتصل ، مما يستظهرون ، بالفنون والآداب
نسال الله تعالى أن يهدي الجميع سواء السبيل
عبد العزيز البشري

الاسبرانتو Esperanto

كل القواعد - ومفردات تبلغ ٢٠٠٠ كلمة نظير
٢٠ مليا طوايع بريد مصرية أو قسيمة بريد للمجارية -
أطلب النشرة نمرة ٣٠
مدرسة الأسبرانتو بالبراسلة ص . ب ٣٦٣ بورسعيد

النفس بتسريح النظر في بدائمه . وكذلك تصبح مطالعة الأدب
رياضة يُطلب بها الترفيه والاستجمام إذا لحق الكد ، وأجهدت
المطاولة في طلب العلم . وسرعان ما تستقيم الطباع ، وتُدرك
الملكات ، ويجري صادق البيان في الأعراق مجرى الدماء
أما إذا حُصِب التلاميذ بالقواعد جافة لا يترقرق فيها ماء
البيان صافياً ، وقنع الأساتذة بأن يلقوا اليهم قطعاً من الشعر أو
النثر ليحفظوها دون أن يوصل بين نفوسهم وبين ما نحوى من
فاسح البلاغة ، فقد استتقلوا.الدرس وكرهوه وبرموا به ،
وتجرعوه تجرعاً إشفاقاً من العقوبة أو من التخلف إذا كانت
الامتحان ! وإني لأكره أن أقول إن إقبال كثرة التلاميذ على
هذا الأدب الرخيص الذي يخرج في العامية حيناً ، وفي تلك
العربية التكررة الشائنة أحياناً ، وبهاقهم عليه ، وافتتانهم به ،
وأخذ الأقلام بمحاكاة وتَرْسَمه ، إنما هو أثر من آثار ذلك البرم
والاستئغال لدروس العربية وآدابها في معاهدنا المصرية !
والآن فالرأى في قيام أدبنا القومي وفي لغة الكتاب العزيز
إلى أساتيد المدارس ، وإلى وزارة المعارف ، فلننظر ما هم فاعلون !
عزرة ورجاء :

بقيت هنالك مسألة لا يجمل بنا أن نختم هذا المقال دون أن
نمرض لها بشيء من البيان : يقولون إن اللغة العربية فقيرة ، أو
إنها أصبحت فقيرة بحيث لا تستطيع أن تؤدي بعض مطالب
الحياة في هذا العصر إلا في شدة عُسر وجرح ، ولا نستطيع
أن تؤدي بعضها أبداً . وهذا كلامٌ ، على أنه لا يخلو من الحق ،
فانه لا يخلو من الاسراف الى حدٍ بعيد . إذ الواقع أن اللغة
العربية غنية سخية بالكثير مما يواتى مطالب العاطفة ، وبصور
نوازع الشعور أحسن تصوير . فلقد بلغ المتقدمون من شعراء
العربية في هذا الباب ما لا أحسب أن قد برعهم فيه كثيرٌ من
أصحاب البيان في اللغات الأخرى . ولو قد نفض متكلمو الأدب
دواوين أولئك الشعراء وقرأوا ما أجنّت من قصائد ومقطوعات
لخرج لهم من ذلك ما يلبسهم جليلاً من تصوير مختلف العواطف
والتصبير عن خفيات الحس والشعور . وهذا ، لو علمت ، أجلُّ
مطالب الأدب في جميع اللغات . وحبذا لو أكثر الأساتيد
من عرض هذه الأشعار على تلاميذهم ، وتقدموا اليهم الفينة